# الجزائر 1830- 1962:

# فقدان الذاكرة، العفو العام، الذكرى: مرارة الجزائر !

## (الجزء الأول)

**برونو ايتيان،**

معهد الدراسات السياسية بآكس آن بروفانس، فرنسا،

**ترجمة د. ودان بوغفالة،**

مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية،

جامعة معسكر.

إن ***مجلة العَالَمَيْن*** (Deux mondes) تأسست زمن احتلال الجزائر، وقد ساهمت منذ أكثر من قرن ونصف في النقاش الثقافي بفرنسا، وقبلت بكتابها؛ وهم الذين ينتمون إلى ميولات ونزعات متنوعة بكثرة، ومنحتهم حرية التعبير عن أفكارهم.

خصصت هذه المجلة، وخلال الفترة المذكورة حوالي ثلاثمائة وعشر مقالا للبلدان المغاربية؛ خصصت منها أكثر من النصف للجزائر بمفردها، وأكثر من عشرين مقالا للمشكل الاستعماري على العموم. واندهشت كثيرا أنا شخصيا عندما كنت أشتغل على الأرشيف من أجل إعداد دراسة بيوغرافية عن الأمير عبد القادر من العثور على مقالات ممتازة عن الأمير نفسه (بربروجر: BERBRUGGER)، وعن فترة الغزو، حررت بأقلام ذات كفاءة عالية يومئذ. كما وجدت كذلك أكثر من ثلاثين مقالا لكاميل روسي (Camille ROUSSET)، وأيضا رحلات أخرى كثيرة لبعض ضباط الجيش. (المرجع. على سبيل المثال الرسائل المكتوبة للجنرال دو كاستيلان (DE CASTELLANE)، ص ص 89- 112 ).

لقد ظهر إذا من الأهمية بمكان لجان كوسي (Jeanne CAUSSE) وبرونو دو سوسول (Bruno de CESSOLE) رسم صورة مماثلة لهذا الإنتاج والاطلاع على مساهمة المجلة في التعرف على هذا البلد القريب جدا والبعيد كذلك. إنه بالتأكيد كان يتوجب الانتقاء، لأنه لم يكن من الممكن إعادة نسخ كل المقالات. كان يجب عرض كل المقدمات وما هو تافه: ***إن الكتاب ينتمون إلى عصرهم، ومن الخطأ أن نحاكم الناس على فترة وكأنهم تم تبليغهم مسبقا بكل ما تعلمناه نحن منذ ذلك الحين***. ولم يتم اختيار المقالات المرتبطة بالأحداث البارزة المعروفة جيدا في التاريخ، لكن من الواضح أنه خلال القرن التاسع عشر كان الكتاب العسكريون والرحالة أكثر حيادا (موضوعيين ووضعيين) من كتاب القرن العشرين الذين كانوا يمارسون في الغالب التبرير الاستعماري بدون تردد.

إن مقالات لويس برتران (Louis BERTRAND) كانت تقريبا كاريكاتورية في هذا الموضوع: لقد كان أستاذا بثانوية آكس وجزائروي « Algérianiste»، وهذا يعني أنه مقتنع في الوقت ذاته بميلاد سلالة جديدة بالجزائر ولكنه عدائي للغاية للسلالة العربية والايطالية. إنه في الواقع، على مستوى اللفظ (هنا كلمة «السلالة» أو كل الأوصاف التي تحدد الأهالي العرب المسلمين الجزائريين) الذي يمكن إتباعه في القضايا المروعة للتصور الاستعماري: كتابات كثيرة لرنان (RENAN) صارت باطلة اليوم تحت طائلة القانون. كان هذا الأخير يفكر بأن الساميين هم سلالة منحطة، وفي مقاله (ص ص 267-287) يناقش بجدية بالغة وجهة النظر التي تتأسس على التمييز في دراسة

الأمازيغ بالمقارنة مع العرب. ويناقض بال (BELLE) التاريخ عندما نتابع اليوم الكفاح الحضاري (KULTUR-KAMPF) للأمازيغية في الجزائر!

كل نصوص القرن التاسع عشر هي معبئة بهذا النوع من المرجعية في التمييز بين العرب والأمازيغ، ونجد فيها حتى أحكاما من نوع: « أوربيا، كان عبد القادر رجلا عظيما » بقلم كاميل روسي ( Camille ROUSSET) في إشادة وجهها إلى الدوق دومال (Duc d'Aumale ص ص 113-136)، فأي جهل بهذه الشخصية!

ومع ذلك، نجد أيضا بعض الملاحظات الايجابية، على سبيل المثال أدبيات ما كمهون (Mac-Mahon ص ص 29-53): « العرب الذين يعرفون بشجاعة ... »، أو المقال الجميل عن الشرف بالصحراء ... في 1854 (ص ص 151-172) ! إنه بحق أن الجنرال دوماس (DAUMAS) هو أحد أفضل الخبراء بالجزائر، وبدون شك هو من أفضل أصدقاء الأمير عبد القادر الذين دافعوا عنه حتى النهاية أثناء فترة أسره.

غير أن الفضائل المعترف بها هي دائما تقدم مُخففة مُضَعَّفة: « ضيافة العرب معروفة جدا على شيوع هذا الموضوع ... »، كما تصرح السيدة دو باركي (Du Parquet) في نص جميل وشرقي نوعا ما، عن رحلتها في بسكرة (Biskra: 231-265) التي قامت بها، تصف في عام 1879 الجزائر التي يعرفها بعض الفرنسيين وبعض الأوربيين المتواجدين بها؛ والذين سيزورونها فيما بعد. وفي مصدر قريب، فرومانتان (Fromentin) لا يفاجئنا؛ وهو من دون شك أحد أفضل الممثلين رفقة دولاكروا (Delacroix) للوحة الشرقية، فوصفه الدقيق (ص ص 173-229) يثير الدهشة بتفاصيله الاتنولوجية. وعلاوة على ذلك، كان

ملاحظا أكثر منه مجاملا، ويطرح السؤال المناسب مثلما يطرحه العرب: لماذا لا يكون الرسام جاسوسا سياسيا؟

أما على المستوى المعماري أو الجمالي، هناك مقال حديث جدا (ص ص 311-333) يلفت الانتباه: قصبة مدينة الجزائر هي ليست سوى من الحنين، ويتأسف كذلك لويس برتران؛ وهو أكثر تعاطفا هذه المرة.

زمنيا، نحن في سنة 1934، لقد وصل إلى مدينة الجزائر لو كوربزيي (Le Corbusier)؛ وهو يحمل مشاريع معمارية كبرى، يزورها رفقة الرسام جون دو ميزونسال (Jean DE MAISONSEUL). وفي أعقاب السنوات الموالية، يواصل فرنان بويان (Fernand POUILLON) وغيره من المعماريين على هذا الزخم نفسه.

إن الجنود يشكون بالفعل من تحيز الصحافة، ويشجب كتاب كثيرون الأخطاء المتداولة في العاصمة عن أعمال الجزائر الفرنسية؛ وهو موضوع متكرر أكثر منه دائم على مدار ما يربو عن قرن من الزمن.

وقام برنار سيميو (Bernard SIMIOT) المتخصص في الدراسات الأمازيغية بالربط بين الفترة الحديثة و« زمن القتلة » (ص ص 535-539) ويستشهد حتى برواية لويس برتران *دم السلالات*؛ وجزائره ( Son Algérie) في كربته هي كذلك غير واقعية عند تأكيده نجاح الاندماج بين الدوران (Les Durant) والآرنونداز (Les Hernandez) ...، دون العرب !

لقد كان كل شيء في مكانه منذ فترة طويلة: القانون الأساسي للمعمرين (المرجع. مقال سنة 1906 لبول لوروا ـ بوليو -Paul LEROY BEAULIEU، ص ص 365-391) واستخدام العمالة المحلية من الأهالي (ص ص 137-149) - ويا له من مقال غير متوقع من الماريشال بوجو (BUGEAUD) عن العمال وعن السان سيمونية (! Le Saint-simonisme)-

، ثم حقوق الفرنسيين المسلمين من أصول شمال إفريقيا (إليزي سباتيي Elisée SABATIER ص ص 457-466)، وحتى الانتخابات المزورة منذ عهد نيجلان (Naegelen) إلى عهد لاكوست (Lacoste) (ص ص 467-480). ونرى بأن السلطات الجزائرية اليوم قد تعلمت الكثير من التلاعب الفرنسي!

وتركز مقالات كثيرة منشورة من عام 1900 إلى عام 1940 على مشكلة القانون الفرنسي الحديث المتعارض مع المشاكل التي يطرحها القانون الأساسي الإسلامي للأهالي ومشكلة القانون الجزائري. لقد اطلعنا هناك (على مقالات موقعة بـ: *** بأول أفريل 1903 وبأول ماي 1935) على النقاش المعقد جدا بين مفهومين متباينين للقانون، أحدهم من أصل ديني ( لفقرة غامضة من القانون الأساسي ليهود الجزائر تعود كفكرة مهيمنة) ، والمفهوم الثاني؛ هو قانون أجنبي ولكنه مؤسس على عقد روسو بحيث لا يستطيع قسم من السكان الانضمام إليه.

وعن هذه النقطة، يلفت انتباهنا المقال (ص ص 457-466) الموثوق به تماما لصاحبه إليزي سباتيي عن الحقوق الانتخابية للأهالي الذي يُبين جيدا رهان مشروع بلوم فيوليت (Blum-Violette)؛ الذي نوقش في مقالات أخرى بتسليط الضوء على معاداة السامية (L'antisémitisme) الكامنة عند الأوربيين بالجزائر الذين بعثوا دريمون وماكس ريجيس (Drumont, Max Régis) إلى الغرفة.

غير أنه من الواضح أن المقالات الأخيرة (لبرنار سيميو على سبيل المثال، ص ص 523-558) هي تتعلق إذن "بالأحداث" الواقعة ذات الطابع السياسي أكثر، وأقل موضوعية من مقالات الجنرال دوماس. وبكل

وضوح، لم تكن الرهانات أبدا هي نفسها، وتزايد سوء الفهم عدائية أكثر فأكثر ما بين المجموعات.

ما يدهشني حقا هو نشأة تصور فريد من نوعه، لقد نشرت ***مجلة العَالَمَيْن*** مقالات أخرى عديدة عن الأب دوفوكو (De Foucauld)، وعن الأسقف لافيجري (Mgr Lavigerie)، وعن فرومانتان (Fromentin) وعن الصحراء السياحية، وحتى عن أوريلي بيكار (Aurélie Picard)، هذه "البوردية" (Bordelaise) التي تزوجت من الشيخ التيجاني.

بيد أن هذه ***المجلة***؛ هي كذلك وحسب زمانها، وما لم تتحدث عنه له دلالته من روح العصر. لم تشر إلى أي شيئ عن الجزائر العميقة، ولا عن أبطالها، لا عن الأمير خالد (حفيد عبد القادر وبدون شك هو أول بطل وطني)، ولا عن ابن باديس أو مصالي الحاج، ولا عن فرحات عباس، ولم تتطرق إلى مدينتي تلمسان وقسنطينة كمراكز ثقافية عربية. كان يجب الانتظار إلى غاية عام 1991م ليتم نشر مقال محرر من طرف أحد المغاربة.

لقد قال حنا أرنت (Hannah ARENDT) إن من يدعي محاكمة نظام ما؛ فهو يزعم محاكمة الجنس البشري. ويظن كثير من الفرنسيين أن العرب المسلمين، والجزائريين على وجه الخصوص ليسوا جزءا من البشرية. وسيكون إذن من الرائع، ومن أجل سلامتنا وأمننا الفكري،أن يعزل زملاؤنا العلميين الصبغيات أو الكروموسومات (Chromosome) الإسلامية. إن الأهلي المسلم « هو دائما في بعض التفاصيل، الكائن نفسه سلبي، رتيب، قطيعي وموهوب بقدرة خارقة للبؤس ... » (« الجزائر ومشاكلها»، مقال موقع بثلاث نجوم، لأول ماي 1935، ص 445 ).

## الاستخدام السليم للذاكرة الجماعية:

وفي غضون ذلك، أردنا أن نساهم في نقاش ظل مؤلما حتى الآن، ومن البديهي، أن واجب الذاكرة لا يمكن أن يتعارض مع التاريخ. إن الذاكرة تضفي على نفسها الشرعية بمعيار وحيد هو عندما تستهدف ضمان الهُوية لمجموعة تتمتع بعلاقة مؤثرة وأليمة مع الماضي؛ وهي تلعب على هاجس عبادة ذكرى معاناة حصرية صدرت فريدة من نوعها غير قابلة للتنفيذ، ولا تضاهيها معاناة الآخر.

ومن الأمثلة التي نوردها بخصوص هذا الموضوع على سبيل المثال في الجزائر، ذاكرة الأقدام السوداء واليهود. وأود هنا أن أقول بأنني عشت في الجزائر ما بين عامي 1959-1975، أي قبل الاستقلال وبعده، وبأن زوجتي ولدت بالجزائر وقد أنجزت أطروحتي عن هذه الفترة المفصلية. وعليه، فإنني أمنح لنفسي حق الحديث عن آلام الطرفين.

غير أن الذاكرة الأحادية هي انتقائية وعدائية لأنها تمنع التصالح، وتنطوي على نوع قائم على ما أسماه بول ريكار ( Paul RICOEUR) « التطبيق بدسيسة الماضي ». وتضع الذاكرة أسسا رافضة الابتعاد وإنكار السياق التاريخي، وتعزز الصور النمطية بإحياء الذكرى. وفي هذا الصدد، بشرت احتفالات مئوية الجزائر فرنسية (L'Algérie française) سنة 1930 مثل طيور مينيرفا (Minerve) بالنهاية المروعة كما كان متوقعا.

## المصادر والمراجع:

« L'Algérie et ses problèmes. ». (1999). In (S. Dir. De Jeanne CAUSSÉ et de Bruno de CESSOLE). Algérie 1830-1962, Les trésors retrouvés de la Revue Des Deux Mondes. Paris: Maisonneuve & Larose/Valmonde. PP. 439-455.

BERBRUGGER, Louis-Adrien. (1999). « Voyage au camp d'Abd el-Kader ». In (S. Dir. De Jeanne CAUSSÉ et de Bruno de CESSOLE). Algérie 1830-1962, Les trésors retrouvés de la Revue Des Deux Mondes. Paris: Maisonneuve & Larose/Valmonde. PP. 55-88.

BERTRAND, Louis. (1999). « À travers les sections de l'exposition coloniale». In (S. Dir. De Jeanne CAUSSÉ et de Bruno de CESSOLE). Algérie 1830-1962, Les trésors retrouvés de la Revue Des Deux Mondes. Paris: Maisonneuve & Larose/Valmonde. PP. 425-437.

BERTRAND, Louis. (1999). « L'Alger que j'ai connu. L'Alger barbaresque ». In (S. Dir. De Jeanne CAUSSÉ et de Bruno de CESSOLE). Algérie 1830-1962, Les trésors retrouvés de la Revue Des Deux Mondes. Paris: Maisonneuve & Larose/Valmonde. PP. 311-333.

BUGEAUD, Maréchal. (1999). « Des travailleurs dans nos grandes villes ». In (S. Dir. De Jeanne CAUSSÉ et de Bruno de CESSOLE). Algérie 1830-1962, Les trésors retrouvés de la Revue Des Deux Mondes. Paris: Maisonneuve & Larose/Valmonde. PP. 137-149.

CHANGARNIER, Capitaine et autres. (1999). « Lettres écrites d'Algérie au général de Castellane 1835-1846 ». In (S. Dir. De Jeanne CAUSSÉ et de Bruno de CESSOLE). Algérie 1830-1962, Les trésors retrouvés de la Revue Des Deux Mondes. Paris: Maisonneuve & Larose/Valmonde. PP. 89-112.

DAUMAS, Eugène Général. (1999). « La Noblesse au désert ». In (S. Dir. De Jeanne CAUSSÉ et de Bruno de CESSOLE). Algérie 1830-1962, Les trésors retrouvés de la Revue Des Deux Mondes. Paris: Maisonneuve & Larose/Valmonde. PP. 151-172.

DE MAC-MAHON, Maréchal. (1999). « Souvenirs d'Algérie: 1830-1870. L'expédition d'Alger ». In (S. Dir. De Jeanne CAUSSÉ et de Bruno de CESSOLE). Algérie 1830-1962, Les trésors retrouvés de la Revue Des Deux Mondes. Paris: Maisonneuve & Larose/Valmonde. PP. 29-53.

DU PARQUET, Mme C. (1999). « Une excursion à Biskra ». In (S. Dir. De Jeanne CAUSSÉ et de Bruno de CESSOLE). Algérie 1830-1962, Les trésors retrouvés de la Revue Des Deux Mondes. Paris: Maisonneuve & Larose/Valmonde. PP. 231-265.

FROMENTIN, Eugène. (1999). « Une année dans le Sahel. Journal d'un absent ». In (S. Dir. De Jeanne CAUSSÉ et de Bruno de CESSOLE). Algérie 1830-1962, Les trésors retrouvés de la Revue Des Deux Mondes. Paris: Maisonneuve & Larose/Valmonde. PP. 173-229.

LAMCHICHI, Abderrahim. (1991). « L'islamisme ou le retour du refoulé ». Revue des Deux Mondes, N° octobre 1991, pp. 92-

LEROY-BEAULIEU, Paul. (1999). « La France dans l'Afrique du nord. Indigènes et colons ». In (S. Dir. De Jeanne CAUSSÉ et de Bruno de CESSOLE). Algérie 1830-1962, Les trésors retrouvés de la Revue Des Deux Mondes. Paris: Maisonneuve & Larose/Valmonde. PP. 365-391.

RENAN, Ernest. (1999). « Exploration scientifique de l'Algérie. La société berbère ». In (S. Dir. De Jeanne CAUSSÉ et de Bruno de CESSOLE). Algérie 1830-1962, Les trésors retrouvés de la Revue Des Deux Mondes. Paris: Maisonneuve & Larose/Valmonde. PP. 267-287.

ROUSSET, Camille. (1999). « La conquête de l'Algérie ». In (S. Dir. De Jeanne CAUSSÉ et de Bruno de CESSOLE). Algérie 1830-1962, Les trésors retrouvés de la Revue Des Deux Mondes. Paris: Maisonneuve & Larose/Valmonde. PP. 113-136.

SABATIER, Élisée. (1999). « Les problèmes algériens. Les droits électoraux des indigènes musulmans ». In (S. Dir. De Jeanne CAUSSÉ et de Bruno de CESSOLE). Algérie 1830-1962, Les trésors retrouvés de la Revue Des Deux Mondes. Paris: Maisonneuve & Larose/Valmonde. PP. 457-466.